

الرأى العام وعوامل تكوينه

للاستاذ عبد الرحمن العيسوى

مظهر الوجود الصحيح للأهم هو ما أصطلح على تسميته بالرأى العام ، وإذا كان الرأى ، أعنى مجرد الرأى . معناه الفكرة الناضجة والخبرة الصادقة والحس والذوق السليم ، فالرأى العام إذن ، معناه : الفكر الناضجة والأذواق السليمة فى الحكم على الأمور العامة ، سياسيا واجتماعيا . وأمتنا المصرية تحس الحاجة وهى فى التطور الأخير من أطوار استقلالها - كما نأمل - إلى رأى عام بالمعنى الذى وصفناه ، لذلك نشير إلى عوامل تكوين الرأى العام فى هذه المقالة القصيرة لتكون مثار دراسة الكتاب والبحاث المفكرين وتذكرة المسئولين ، ونقرر أن الاتجاه فى تكوين للرأى العام يتمدد ويطول به الزمان إذا عالجنا فى القوالب الفردية ، فالقرآن الكريم وهو جماع المبادئ ، الفلسفية والاجتماعية وضع له قواعد ليست من الفردية فى شئ ، بقوله :

”يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا أهديتم“ والآية بصدد التوجيه الاعتقادي الذى هو عامل أول من عوامل تكوين الرأى العام ، فلم يخاطب الفرد ولكن خاطب الجماعة ، ووضع وسيلة وأسلوبا جمعا لا فرديا ، فقلنا إذن حين نحاول تكوين الرأى العام أن نتجه إلى تكوين رأى الجماعات الصغيرة مسيرة للقاعدة واختصارا للزمن .

فهذه مجموعات التلاميذ فى المدارس ، والطلاب فى الجامعات والمعاهد ، ومجموعات الموظفين فى الدواوين والفلاحين فى القرى . والعامل فى المصانع ، والعمال فى النقابات ، وأيضا مجموعات المذنبين فى السجون ، ومجموعات الجهاديين فى الشارع ، يمكن أن يوضع لكل مجموعة منها ، توجه مناسب لها ، يقارب اتجاهاتها ، ويشا كل بين نزعاتها ، فيتألف لدينا رأى عام متوافق المشارب ، والتوافق هو العنصر الأول من عناصر تكوين الرأى العام . وصور التوافق متعددة ، وعوامله كثيرة ، فمن صورته التوافق الحسى فى الأزياء والتوافق المزاجى ، بماثل تماثل البيئة ، والبيئة هى كل ما نسمع وما نقرأ وما نبصر وما نحس ، وهى المؤثر الأول فى التكوين من حيث قوة التأثير واستمراره وملازمته للتغير منذ ولادته ، والتوافق الاعتقادي ، صورة أخرى ، ونحن مع الأمف فى هذه الناحية متنافرون ، فالمذاهب الدينية المستحدثة لا توجد توافقا بل تنافرا ، فالسنى والسبكي والسلفى والصوفى... الخ تلك التمايز ومدلولاتها ، كل منهم على غير رأى الآخر ، بينما نوفق بينهم العقيدة الأساسية فى الدين ، تبايد بينهم هذه الابتداعات .

ومن عوامل التوافق ، توحيد الثقافة الشعبية ، بعد العمل على إيجادها ، وتوحيد أساليب التربية وساهج الدراسة ، فهذه الطرائق الخمسة من طرائق التعليم والمناهج ممثلة فى المدارس الإلزامية والدا رس الأميرية والمعاهد الأزهرية والمعاهد الأجنبية بفروعها ، الدينى منها

والعلماني ، لا تحقق توافقا ذهنيا بين خريجيها ، فطالب الجامعة المصرية على نسق وغرار في تفكيره ورايه مخالف كلية لنسق وغرار طالب الجامعة الأزهرية ، وكلاهما على غير صورة خريجي مدرسة الجزويت أو كلية فكتوريا ، أقصد المخالفة في النظر الى المسائل العامة وفي الحكم عليها ، وهم جميعا مختلفون مع غيرهم جميعا .

فتوحيد برامج التعليم وأساليب التربية في المراحل الابتدائية على الأقل ، وفرضها لزاما على معاهد العلم المختلفة ، عامل أساسي في ايجاد التناوب الذهني بين طبقات الشعب ؛ فإذا كانت هذه المناهج معنية عناية صحيحة ، الى جانب ما تحققه وحدتها من انسجام ، يخلق الكرامة الشخصية والكرامة الاجتماعية والكرامة الوطنية ، تحقق من عناصر الرأي ، الاصابة والقوة والطموح ، وهو العنصر الثاني ، وليس مما يخلق الكرامة الاجتماعية والوطنية ، أو يساعد عليها ، أن تهمل اللغة القومية في بعض فروع الدراسة الجامعية لأي سبب واه أو حجة عابثة ، ومجموعات الموظفين في الدواوين ولم أثرهم في الحياة الاجتماعية والسياسية ، أحوج الى الانسجام والطموح وتوفر الكرامة الشخصية والاجتماعية والوطنية ، ولا تتوفر الأولى إلا اذا تركت للأوظف فرصة القرس بالاضطلاع بالمسؤولية وعومل من رؤسائه على أنه مادة حية لها تصرف ذاتي ، لا آلة كاتبة تقدم الأوراق ولا تعرضها ، وتسجل التأشيرات ولا تناقشها ، وتأخذ التوجيه دون أن تفهمه ، ولا تتوفر الثانية أي الكرامة الاجتماعية إلا اذا انتظمتم ثقافة اجتماعية مماثلة وأعطيت لهم الفرص للتروء من المعرفة بتعميم الأندية الخاصة بهم ، وتعميم الجماعات الفنية والأدبية بينهم وتعرضهم الى الاضطلاع بكل أساليب التحرير ، والكرامة الوطنية في صغوفهم تكون بكفالة امتقار حالهم والتناثي بهم عن أن يكونوا في مهاب الأهواء التي محق استئلال آرائهم وتلاشي ذاتيتهم في غيرهم .

والفلاحون في القرى تتكون ملكاتهم في الشؤون العامة إذا يسرنا لهم مشاركتنا في تلك الشؤون وأنزنا أذهانهم بأساليبنا في فهم الحياة الاجتماعية ، وعرضنا لهم صورها الذهنية على تنوعها ، بتعميم أجهزة الاذاعة اللاسلكية في الساحات الشعبية في قراهم ، مع تخصيص برنامج خاص بتلك البيئة ، مرات كل أسبوع ، للتثقيف والترفيه ، ولا بد لتخلق رأيا عاما ، رأيا عاما كالذي وصفناه ، في جماهير الفلاحين ، لا بد أن نهتم بمسواهم الاقتصادي نهضة ترق بمشاعرهم وتكرم أنفسهم على أنفسهم ، فالارتفاع الاقتصادي ورفع مستوى المعيشة عامل عظيم القيمة في صون الكرامة الشخصية والاجتماعية بل وفي خلقها ، وهو ضروري التوفير لكل الجماعات ، ولكنه الجماهير الفلاحين اوجب وألزم ، وقد درس الخبيرون دوايات مستفيضة وعملية ، أمر توفير الرخاء لتلك الطبقات ولم يبق إلا أن توجد الخبرة الوزارية للتنفيذ ، ويقيني أن معالي وزير الشؤون الاجتماعية الحالي — وهو من أعرف زعمائه الوطنية الصادقة وروحه المتوقدة غيرة على العمل الوطني لأعلى الكلام في الوطنية — هو الرجل الذي طال بالشباب المصلحين استظاره ، ليقود جهودهم وينظم صفوفهم .

والعمال في مصانعهم ، يصدق عليهم هذا على صورة تختلف قليلا ، ويجب لهم فوق ذلك فراغ . . ثم إشراف على تنظيم ذلك الفراغ ، لاستغلاله في الاستزادة من الثقافات المهنية والاجتماعية التي يجب على الشباب أن تعرضها عليهم وتيسر تحصيلها لهم ، مما لا بد لعامل العصر الحديث أن يعرفه ، ليؤدله إلى ما يطمح إليه من آمال سياسية وفيمة اجتماعية . وهؤلاء العمال في نقاباتهم ، لديهم الفرصة لتنمحي الفوارق الذمنية والاجتماعية التي تباعد كثيرا بينهم وبين الطبقة التي تعلمهم ، لو أشرفت هيئة من الإخصائيين يختارها وزير الشؤون الاجتماعية لتضع برامج ثقافة مهنية واجتماعية لنقابات العمل وتنظم إنجازها في دور تلك النقابات جميعا ، بذلك نضمن تقارب منازع الرأي العام في جهادها لمشاركة فعليه في إبداء الرأي ، وهي مشاركة خطيرة ما قامت على معلومات خاطئة وثقافة ناقصة واستنباطات ساذجة ، فلنعالج الرأي العام العمال في سرعة وحزم وإخلاص ، وإن نقابات العمال تستطيع أن تصوغ أفرادها صياغة الجواهرى لقطع الحلى بأنظمتها التعاونية ووحدة الفكرة فيها ووحدة الغرض وسموه ، ونستطيع أن نقيم بهم التوازن في المجتمع ، بما نتخلق فيهم من ممالك الكرامة الشخصية والاجتماعية والوطنية .

.. والمذنبون في السجون الذين يعيشون في ظل نظام لا يساعد على شعورهم بكراماتهم ، وبينما الدنيا تتطور وتعلم النفس يتسيطر وروح المجتمع تتغير ، فإن قوانين السجون في مصر لا تتبدل ولا تتحور ، وقد آن لمجتمعنا أن يقول للفيلسوف وأستاذ علم النفس كونا أنما السجانين فانا نريد السجان مهذبا ومعالجا ، لاعسافا وزاجرا ، موجها ومرشدا ، لاحاسبا معاقبا ، آن للمجتمع أن يقول للعالم والفيلسوف ، أخرجنا لنا من هذه القبايات الآدمية ، خير ما فيها ، صححنا لنا المصائب المريضة بالجرعة ، وصوغنا من جديد نفسية الضحية لظروف لم يخلقوها ، ثم أعيدوا لنا هذه العشرات من الآلاف أو أكثرها على الأقل ، أعيدوها أجزاء كريمة في كيان الرأي العام وأعضاء سليمة في المجتمع العام . . وذلك على الفيلسوف والعالم جد يسير .

وجاهير الشارع الذين لا يحدون بيئة تربي الذوق أو تسو بالحس الشخصي والوطني ، فلا تماثيل للعظماء الراحين — على أسوار الحدائق مثلا ، وفي الشوارع والميادين ، ولا هندسة تنظيم ، ولا ساحات ملاعب رياضية ، ولا نواد شعبية ، إلى آخر صور البيئة الجميلة الفاضلة ، ولا نفع أعينهم إلا على أفرادهم ، في لزياء كرفالية متنافرة ، لا توجد الأذواق ولا نواف الأحاسيس ، ولا تسمع آذانهم إلا ألفاظا نابية غير مهذبة ، ولا يشغلهم إلا التسكع على الطوارات والمقاهي ، تدمر وقتهم وأعضائهم وأموالهم وأخلاقهم .

هؤلاء ، وهم جزء هام في الرأي العام ، يسمى باسمه الكل ، فنقول هذا رأى رجل الشارع
نعنى غالبية الرأي العام ، يلزمنا حيالهم ، لتوفر لهم صفة الرأي العام الذى عرفناه ، أن نتلافى
كل ما ذكرته من نقائص ونحل محلها أضرارها من المحاسن .

ولا أغفل أن من العوامل الأساسية في صوغ الرأي العام وطبعه بطابع معين ، الصحافة
ولكنها مع الأسف عاجزة في الأحوال الحاضرة عن أداء مهمتها على الوجه الأكمل ، فرأينا
العام يعيوبه هذه ، يتنازع اجتذابها اليه فيكاد يسير بها بدل أن تسير ، ويترهل بها بدل أن
تعلو هي به ، والوسيلة الصحيحة لاستخدام الصحافة في تكوين الرأي العام ، التكوين
الذى نطلبه (في شعب كشعبنا وظرف كظروفنا) ، هي أن توضع للصحافة والصحافيين
قواعد وأهداف ومناهج وأماليب توحدها رقابة الصحفيين ، حتى لا يكون هناك مجال
لتنافس الصحف في اجتذاب الجماهير باسترضائها ومسايرة رغباتها ، فتقرأ الجماهير كلها ،
الصحف المنشورة ، دون تفضيل ، وتأثر طوعا أو كرها بإرشادها .

أن القوانين أيضا مؤثرة في الأخلاق ، والأصل فيها أن تكون متفاعلة مع أخلاق الشعب ،
ولكن حالتنا الخاصة تستدعى أن يحرص زعمائنا وحكامنا على أن تصوغنا قوانيننا ، لا أن
نصوغها نحن مع قلة نضجنا ، وأنى لموقن أن العامل الأول في توجيه رأينا العام ، يجب
أن يكون الباسة والزعماء ، فهم المرشد الذى نحتاجه ولا يجوز لنا في دور التكوين والطفولة
الاجتماعية ، أن نصنع الزعماء والقادة ونجذب العقول الكبيرة الى مستوى عقولنا الناشئة .

عبد الرحمن العيسوى

الفى يصدق كل كلمة والذى يتنبه الى خطواته .

(سليمان الحكيم)

أنا الفنى وأموالى المواعيد .

(المتنئى)